

تدين إمارة أبو ظبي اليوم بالكثير للسياسات والإجراءات التي قام بها الشيخ زايد بن خليفة، حاكم أبو ظبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبضع سنين من القرن العشرين. لقد كان ملزماً بالتحرك بحذر وسط عدد من القوى المتنافسة في المنطقة، وأن يكون أشد حذراً عند التعامل مع قوتين إمبراطوريتين عنيتا بشؤون الخليج في ذلك الوقت وهما: الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية البريطانية. وبالتأكيد كانت بريطانيا تسيطر على الخليج حتى مرحلة متقدمة من القرن العشرين، ولذلك يمكن القول إن أهم علاقات الشيخ زايد في كثير من الجوانب كانت مع بريطانيا، وأياً كانت تحركات زايد فقد كان يضع في عين الاعتبار دائماً ردة الفعل البريطانية، ويضبط الوضع وفق ذلك. وقد تحولت في عهده العلاقة مع بريطانيا من علاقة ثنائية إلى علاقة حماية رسمية، وطغت علاقته بها على علاقته بالعثمانيين. وعلى الرغم من أن ذلك أجبره على التحرك بحذر، فإنه لم يمنعه من تثبيت حكمه - وحكم آل نهيان - في أبو ظبي.

الدور التاريخي لبريطانيا في الخليج

ارتبطت سيطرة بريطانيا على الهند باهتمامها القديم بمنطقة الخليج وبالسيطرة عليها. وقد بدأ ذلك الاهتمام في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. ومن أجل مصالحها أدت الحكومة البريطانية في الهند دوراً متزايداً في سياسات الساحل العربي للخليج، وقد ظهر ذلك في نواح عدة:

أولاً - استخدمت بريطانيا في بداية القرن التاسع عشر العمل العسكري البحري للقضاء على ما كانت تعتبره قرصنة؛ فقد استهدفت القوة البحرية للقواسم المتمركزة في رأس الخيمة شمال دولة الإمارات العربية المتحدة، وقامت بالعديد من الحملات على رأس الخيمة بين عامي 1817 و 1820 عندما دمرت السفن البريطانية مدينة رأس الخيمة^[1].

ثانياً - بدأت بريطانيا فرض نظام معاهدات السلام في البحر في أوائل ومنتصف القرن التاسع عشر لمنع الاقتتال في البحر؛ إذ إن العبور البحري كان المصلحة البريطانية الأولى. وكانت طبيعة تلك المعاهدات البريطانية مؤقتة حتى عام 1853م حين وُقعت اتفاقية السلام البحري الدائمة. وأضفى نظام المهادنة هذا شرعية على شيوخ المناطق الداخلية الذين وقّعوه، واعتزافاً بزعامتهم لمستوطناتهم والقبائل المتحالفة معهم، ومنحهم وعائلاتهم أيضاً حقوق الحكام المحليين، وجعلهم مسؤولين عن أنشطة السكان الذين يعيشون تحت سيطرتهم المباشرة أو في مناطق نفوذهم^[2].

1. British actions against al-Qawasim are detailed in J.G. Lorimer, comp., Gazetteer of the Persian Gulf, 'Omân, and Central Arabia (Calcutta: Superintendent, Government Printing, Vol. 1: 1915; Vol. 2: 1908), Vol. 1, Part 1, pp. 637-670. For rebuttals of the allegations of piracy, see Sultan Muhammad al-Qasimi, The Myth of Arab Piracy in the Gulf (London: Croom Helm, 1986. 2nd ed.; London: Routledge, 1988), and Charles E. Davies, The Blood-Red Flag: An Investigation into Qasimi Piracy, 1797-1820 (Exeter, UK: University of Exeter Press, 1997).
2. All agreements and treaties between the British government and littoral rulers can be found in C.U. Aitchison, comp., A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries (revised ed.; Delhi: Manager of Publications, 1933), Vol. 11, "Containing The Treaties, &c., Relating to Aden and the South Western Coast of Arabia, the Arab Principalities in the Persian Gulf, Muscat (Oman), Baluchistan and the North-West Frontier Province."

ثالثاً - حول الاعتراف المعقد المزعوم إلى فرض حماية رسمية بعدد من المعاهدات في حوالي تسعينيات القرن التاسع عشر، ووضعت تلك المعاهدات حكام الساحل العربي تحت حماية وسيطرة الحكومة البريطانية في الهند التي منحت نفسها سلطة وحقوقاً قانونية وغير قانونية للتدخل المباشر في الشؤون الداخلية كلما ارتأت بريطانيا ذلك ضرورياً. ونشأ من تلك الفترة نظام الوكلاء البريطانيين في الخليج^[3].

كان إنشاء خطوط جوية إلى المنطقة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين الخطوة التالية في تقوية الدور البريطاني في تحويل الساحل العربي إلى دولة. وفي الدرجة الأولى كانت تلك هي الطريق من لندن إلى الهند، وطريق القوات الجوية الملكية البريطانية البصرة - عدن. وقد ترتب على قصر مدى رحلات الطائرات المدنية والعسكرية إنشاء سلسلة من مدارج الطائرات للاستخدام العادي، وشبكة من المدارج الاحتياطية للطوارئ؛ وقد تطلب أمن تلك المطارات والمدارج أن يكون للحكام المحليين سيطرة قوية على أراضيهم الداخلية. وكان وضع شروط لسيطرة الحكام على القبائل والسكان الذين يدينون لهم بالولاء في المناطق الداخلية خطوة أساسية للاهتمام بسيطرة الحكام مسبقاً على الأنشطة البحرية^[4].

ولابد من الإشارة - رغم ذلك - إلى أن وضع الوكلاء البريطانيين في عدة أماكن من الساحل، والقلق من التوسع العثماني والسعودي، قد أدبا إلى تدخل بريطاني أوسع في الشؤون الداخلية لحكام الساحل في ذلك الحين. وقد حلت الجهود البريطانية لمنح الشركات البريطانية امتيازات التنقيب عن البترول في إمارات الساحل محل اهتمام بريطانيا بتأثير الطرق الجوية في الأمن الداخلي. وتطلبت عملية البحث عن البترول توسيع سيطرة الحكام على الشعب، والاهتمام بوحدة الأراضي. إضافة إلى ضرورة السيطرة التامة على أمن الأراضي ضمن حدود دولهم الناشئة.

لم يتبدد قلق بريطانيا بعد استقلال الهند عام ١٩٤٧؛ لأن الشركات البريطانية كانت شريكاً فعالاً في العديد من الامتيازات البترولية. ويعني ذلك أيضاً أن مؤسسات بريطانية أخرى استفادت من بعض المشاريع التجارية في الاقتصاد الخليجي الجديد الصاعد. وكانت تصرفات بريطانيا لحماية وكلائها هي للحماية من الأيديولوجيات الراديكالية في الخليج في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. وحتى بعد استقلال الكويت عام ١٩٦١ شعرت بريطانيا بضرورة القيام بعمل عسكري ضد تصرفات العراق الثورية إذا ما حثرك ضد الكويت.

وأخيراً نتج من القرار البريطاني الانسحاب من الخليج الذي اتخذ عام ١٩٦٨، ونفذ عام ١٩٧١ - قلق بريطاني وعالمي بشأن استقرار وبقاء الإمارات العربية الصغيرة بدون حماية بريطانية. ولا داعي للقول إن تلك الدول استطاعت البقاء تحت مظلة أمريكية أوسع تدعمها بريطانيا ودول أخرى. وقد أثر التطور التدريجي لتلك الأحداث في حكام وسكان الساحل العربي تأثيراً كبيراً؛ فقد كانت بداية للتحوّل من أنظمة قبلية خالصة إلى ما أصبح دولاً فيما بعد، والقيادات البارزة التي عرفها البريطانيون على الساحل العربي ثابتة في سلطتها تحولت إلى حكام لدول صغيرة. إذن فقد وُضع الساحل العربي بشكل غير رسمي تحت لواء الحكومة البريطانية في الهند، وتأسست علاقة رابطة بين المنطقة وبريطانيا.

3. The agreements are discussed in a number of works, particularly in various country studies. The text of the agreements can be found in Aitchison, "Collection of Treaties."

4. J.E. Peterson, Defending Arabia (London: Croom Helm; New York: St. Martin's Press, 1986).

ومن المهم أن نذكر أن السياسة البريطانية لم تكن وحدها المسؤولة عن تحديد مجرى التاريخ في المنطقة؛ فقد كانت شخصيات محلية قوية تحدها أيضاً. ولم يرق أولئك الحكام علاقات مع بريطانيا فحسب، بل كانت لهم آثارهم في تحويل المناطق التي تحت سلطتهم إلى دول. ويهتم هذا البحث بإحدى هذه الشخصيات ودورها في تأسيس وتطوير دولتها.

الشيخ زايد بن خليفة وتأسيس أبوظبي

كانت المنطقة التي عرفت بالساحل المتصالح، وأصبحت تعرف لاحقاً بدولة الإمارات العربية المتحدة، في القرن التاسع عشر تحت سيطرة طرفين رئيسيين متنافسين، وهما: بنو ياس، والقواسم^[5]. وكان القواسم يقيمون في الجزء الشمالي من الساحل المتصالح، وهو اليوم الشارقة ورأس الخيمة.

كان بنو ياس في الأساس اتحاداً من القبائل يضم آل بوفلاح، والهوامل، والمحاربة، والمزاريع، والبومهير، والرميثات، والقبيسات، وآل مرّ، وحسب بعض الآراء: السودان والناصرير. وقد أصبح حلف بني ياس أحد أقوى الأحلاف القبلية في المنطقة بسبب الدمج بين عناصره البدوية والحضرية، وخالفه مع قبائل رئيسية أخرى. أما المركز الرئيسي للحلف فهو واحة ليوا في الجزء الجنوبي الشرقي لإمارة أبوظبي اليوم، ولكن بني ياس ما لبثوا أن أسسوا مستوطنة لهم في أبوظبي أصبحت عاصمة لهم عام ١٧٦١. وجاء شيوخ القبيلة من آل بوفلاح، وبالتحديد من عائلة آل نهيان. وكان لها تعاملات وثيقة مع قبيلتي السودان والناصرير؛ إذ تزوج العديد من شيوخ آل نهيان من هاتين القبيلتين اللتين طالما ساند أفرادها بني ياس في الأزمات. وقد تأسست فيما بعد علاقة وطيدة بين بني ياس والظواهر عندما توسعت مصالح بني ياس إلى واحة البريمي من أراض بني ياس الداخلية في أبوظبي. بالإضافة إلى ذلك اعترفت بعض القبائل الصغيرة بسلطة آل نهيان، واحتكمت إلى شيوخهم في فض النزاعات.

كان حلف بني ياس قوة برية بسبب طبيعتهم البدوية وانتشار مستوطناتهم، ما جعلهم أقل عرضة للصدام مع البريطانيين، على عكس القواسم الذين كانوا قوة بحرية. وقد ازدادت قوة بني ياس، في حين كانت بريطانيا تحاول تقليص قوة القواسم في بداية القرن التاسع عشر (لأن القواسم اعترضوا سفن الشحن البريطانية، وكانت بريطانيا تلقبهم بالقراصنة). وكان آل بوفلاح - ومن بينهم آل نهيان - من أصغر فروع قبيلة بني ياس، ولكن قيادة الحلف كانت لهم، ولم يتأثر برحيل عائلة آل بوفلاح عام ١٨٣٣ التي أسست دبي.

ازدادت حظوظ آل نهيان وبني ياس بقيادة الشيخ زايد بن خليفة الذي حكم من عام ١٨٥٥ إلى ١٩٠٩. وكانت زعامة آل نهيان في بداية القرن العشرين غير منتظمة؛ إذ أُجبر الشيخ الذي ترأس القبيلة قبل الشيخ زايد بن خليفة على الرحيل من أبوظبي عندما جوبه بمعارضة شعبية بسبب أعماله (وقد حاول العودة عام ١٨٥٦ بمساعدة حاكم الشارقة ولكنه لم ينجح). وقد عمل الشيخ زايد - بصفته الشيخ الأعلى أو التميمة لحلف بني ياس - على تثبيت حلف بني ياس بالناصرير والسودان. بالإضافة إلى مد سلطته على قبائل أبوظبي. وقد كان اهتمامه مركزاً في التنافس الكبير مع القواسم، إلا

5. This brief historical survey relies on background material presented in J.G., Lorimer, comp., Gazetteer of the Persian Gulf, 'Omān, and Central Arabia (Calcutta: Superintendent, Government Printing, Vol. 1: 1915; Vol. 2: 1908), "History of Trucial Oman," in Vol. 1, Historical, Part 1, Chapter 3, pp. 630-785; Muhammad Morsy Abdullah, The United Arab Emirates: A Modern History (London: Croom Helm; New York: Barnes & Noble, 1978); Frauke Heard-Bey, From Trucial States to United Arab Emirates: A Society in Transition (London: Longman, 1983; new ed., 1996); and Rosemarie Said Zahlan, The Making of the Modern Gulf States: Kuwait, Bahrain, Qatar, the United Arab Emirates and Oman (London: Unwin Hyman, 1989; rev. ed.; Reading: Ithaca Press, 1998).

أن وفاة الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة عام ١٨٦٦ أتاحت له أن يمد سلطته شمالاً على الساحل المتصالح.

استفاد الشيخ زايد من التحول الإقليمي في مسعاه لبناء إمارة أبوظبي كدولة. أما قوة القواسم فقد تدهورت. وسعى حكامهم المتتابعين إلى إقامة علاقات ودية مع جيرانهم آل نهيان الأقوياء. وقد أدى انهيار الدولة السعودية الثانية في ستينيات القرن التاسع عشر إلى إبعاد تهديد آخر لأبوظبي وإضعاف الدولة القاسمية. وأدى عدم استقرار الوضع في عمان واغتصاب الحكم في مسقط بين عامي ١٨٦٨-١٨٧١ إلى إضعاف سلطة حكام آل بوسعيد على الظاهرة. وهي المنطقة المجاورة لأبوظبي من جهة الشرق. وبمساعدة الإمام عزان بن قيس (السيطر على الحكم في مسقط) تحرك الشيخ زايد إلى قرى آل نعيم في واحة البريمي وطرده الحامية السعودية منها.

لقد فتحت أعمال الشيخ زايد جبهة جديدة لوضع أكبر قدر من مساحة البريمي تحت سلطة بني ياس الذين كان لهم دور سياسي في البريمي منذ بداية القرن السابع عشر. وكانوا أيضاً يملكون بعض الأراضي فيها عدة قرون. وهكذا كان الشيخ زايد يوسع نفوذ آل نهيان داخل بني ياس. وسلطة بني ياس على قبائل الحلف مثل المناصير والسودان بالإضافة إلى القبائل البدوية. وقد وضع وجود الشيخ زايد في البريمي الطواهر ضمن دائرة بني ياس. ودعمهم في مواجهة القبيلة الرئيسية الأخرى في البريمي: آل نعيم. أما فيما يخص الأقاليم فقد امتدت سلطة الشيخ زايد من لبوا إلى الظفرة. وإلى مستوطنة أبوظبي. وواحة البريمي. وامتد نفوذه - ولو بدرجة أقل - في الظاهرة. وحتى عيري. وبين القبائل حول صحار على ساحل الباطنة في عمان. وكانت له حُطط أيضاً فيما يخص شمال الساحل المتصالح.

امتدت سلطة الشيخ زايد - لضعف حكام مسقط - حتى الظاهرة والقبائل فيها. ورغم أنهم كانوا تابعين ولو اسمياً للسلطين فقد لجؤوا إلى الشيخ زايد للمساعدة والفصل في النزاعات. ورغم أن العلاقات بين الشيخ زايد وحاكم مسقط الذي عزل عزان بن قيس كانت جامدة تقريباً فقد كان من مصلحة القوتين التعاون معاً. وقد منح السلطان تركي بن سعيد، وخليفته فيصل بن تركي - الشيخ زايداً مسؤولية رعاية الكثير من مصالح مسقط في البريمي والظاهرة.

الشيخ زايد بن خليفة والبريطانيون

ثمة عوامل إقليمية متعددة عززت قوة الشيخ زايد ووضعته أيضاً على خريطة المصالح البريطانية: فقد تم أول تعامل بين أبوظبي وبريطانيا عندما وقع آل نهيان اتفاقية السلام العامة مع القبائل العربية عام ١٨٢٠. وكانت أبوظبي من الأطراف التي وقعت اتفاقية السلام الدائمة عام ١٩٥٣. وهي التي حرّمت القتال في البحر بين القوى الساحلية. وقد ظلت العلاقات بين بني ياس وبريطانيا عند أدنى مستوى؛ لأن مصالح بني ياس كانت في الأراضي الداخلية أو على طول الساحل. بالإضافة إلى أن بريطانيا أمّنت السلام البحري بمنتصف القرن التاسع عشر. وكانت المصالح التجارية مع الساحل العربي على نطاق ضيق. إلا أن مصالحها الإقليمية قد تحولت من الساحل المتصالح إلى أمور أخرى مثل خط التلغراف، والملاحه بالسفن البخارية، والعلاقات السياسية مع فارس. وبلاد ما بين الرافدين العثمانية، والمحاولات الأوروبية الأخرى لمنافسة النفوذ البريطاني في الخليج، التي كان القليل منها

يخص الساحل المتصالح^[6]، وكان اهتمام بريطانيا بالتطورات على طول الساحل المتصالح قليلاً، وزادت أعمال الشيخ زايد من ذلك الاهتمام، وكانت له علاقة مباشرة بالمثلين البريطانيين منذ عام ١٨٥٩ عندما قابل المقيم السياسي في زيارته الأخيرة لأبوظبي وعبر عن قلقه من المطامع السعودية المحتملة في أراضيه، وإن جَاهل في الوقت نفسه موضوع علاقته بالعثمانيين^[7].

لقد أرادت بريطانيا كثيراً إضعاف قوة القواسم عند مدخل الخليج، ولكنها تدخلت عندما أرسل زعيم آل نهيان أسطولاً لدعم حاكم مسقط ضد القواسم عام ١٨٦٠. وعارض الشيخ زايد البريطانيين عندما أرسل أسطولاً لمساندة حاكم البحرين ضد القبائل القطرية، وبرر عمله ذلك بأن آل سعود كانوا يمثلون تهديداً دائماً لأبوظبي، وكانوا يدعمون القطريين. ولكنه أُجبر على تقديم تعهد خطي للمقيم السياسي بعدم القيام بأي هجوم بحري، وبدفع غرامة، وتسليم مدافعه للبريطانيين^[8].

رحبت بريطانيا بالعلاقات الصحيحة بين الشيخ زايد والسلطان تركي؛ إذ اعتبرت سيطرة الإمام عزان على مسقط أمراً مزعجاً. إضافة إلى ذلك عارضت بريطانيا وأبوظبي التوسع العثماني في الخليج، وكان الاحتلال العثماني للأحساء في عام ١٨٧١ عاملاً إيجابياً في التقريب بين مصالح بريطانيا ومصالح أبوظبي. وكان العثمانيون قد طالبوا بالسيادة على أبوظبي رغم عدم تمكنهم من ذلك. ووجد الشيخ زايد في التهديد العثماني فرصة سانحة ليس لتأكيد استقلال أبوظبي فحسب، ولكن للمطالبة بخور العديد تلك المنطقة الساحلية بين أبوظبي وقطر. وكانت بريطانيا ملزمة بدعم الشيخ زايد لمنع السيطرة العثمانية على خور العديد رغم الصعوبة التي واجهها الشيخ زايد في السيطرة على سكانها^[9]. ولم يكن النزاع حول خور العديد بين العثمانيين وأبوظبي، أو بين القبائل التي تحت سلطة الشيخ زايد فحسب، ولكن كان مصدراً للخلاف بين أبوظبي وقطر كذلك أكثر من عقد^[10].

وفي الوقت نفسه كان الشيخ زايد مهتماً بإنشاء علاقات إقليمية تدعم استقلاله. وكان حجه مكة عام ١٨٨٠ سبباً ثانوياً لتأسيس علاقات مع أشراف مكة الهاشميين الذين كانوا تابعين لإسطنبول اسماً فحسب، وكانوا مستقلين إلى حد كبير. وكان الشيخ زايد مهتماً أيضاً بتجديد علاقاته التقليدية بالبحرين، وهو تطور ضروري لحالة العداء التي ظهرت بين أبوظبي وقطر في ثمانينيات القرن التاسع عشر.

شهدت ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته خلافاً بين بريطانيا والشيخ زايد؛ فقد كانت نشاطات الممثل الفارسي في أبوظبي ودبي عام ١٨٨٧ ساعية إلى مجابهة الوضع البريطاني على الساحل لإنشاء نظير لوكيل المقيمة البريطانية، الأمر الذي أدى إلى احتجاج بريطاني سريع، وضغطت بريطانيا في ديسمبر من تلك السنة على شيوخ الساحل المتصالح لتوقيع اتفاقية تنص على أنهم لن يتعاملوا مع أي حكومة سوى الحكومة البريطانية، ولن يسمحوا لأي وكيل أجنبي بأن يقيم في

6. Recent treatments of British activities and policy in the Gulf during this period are in James Onley, *The Arabian Frontier of the British Raj* (London: Oxford University Press, 2007), and J.E. Peterson, "Britain and the Gulf: At the Periphery of Empire," in Lawrence D. Potter, ed., *The Gulf in History* (New York: Palgrave, forthcoming).

7. The Political Resident's report on his annual tour of the Gulf, April and May 1859, reproduced in Penelope Tuson, ed., *Records of the Emirates: Primary Documents, 1820-1958* (London: Archive Editions, 1990), Vol. 3, 1853-1871, esp. pp. 81-83.

8. Tuson, *Records of the Emirates*, Vol. 3, pp. 554-555.

9. See the Viceroy of India's despatch to the Secretary of State for India of 22 May 1879, reproduced in Tuson, *Records of the Emirates*, Vol. 4, 1871-1892, pp. 73-80.

10. See the British correspondence on developments in Abu Dhabi-tribal and Abu Dhabi-Qatari relations between 1876 and 1890 in Tuson, *Records of the Emirates*, Vol. 4, pp. 247-414.

أراضيهم. ودعا الاهتمام المتزايد بالخليج - من فرنسا خاصة - بريطانيا إلى تأكيد سلطتها بتوقيع اتفاقية ذات طابع رسمي أشد وطأة عام ١٨٩٢ لربط شيوخ الساحل المتصالح وخلفائهم بالالتزام باتفاقية ١٨٨٧. وضمان وعدهم بعدم التنازل عن أي جزء من أراضيهم أو بيعه، أو رهنه لأحد سوى الحكومة البريطانية. واستخدمت تلك الاتفاقية كنموذج لاتفاقيات أخرى لاحقة في الخليج.

أدركت بريطانيا أهمية الشيخ زايد وضرورة إبقائه في موقع القوة. ووضح ذلك في ملاحظة وردت في التقرير الإداري للمقيمة السياسية في الخليج لعام ١٨٨٨-١٨٨٩ حين أشارت إلى الشيخ زايد بأنه "أهم شخصية في غرب عمان. تمتد سلطته من جنوب ساحل الخليج وحتى العديد. وتتداخل حدوده الغربية مع قطر والأحساء، وأن الكثير من البدو الذين يطوفون تلك الأجزاء بين تلك الجبهة والبريمي معتمدون على حاكم أبوظبي، أو حلفاء له"¹¹.

ويبدو أن الشيخ زايداً قد لاحظ في العقد التالي العلاقات المتنامية بين الفرنسيين والسلطان فيصل بن تركي في مسقط؛ فانتهاز تلك الفرصة لتوسيع علاقاته الدولية. وأرسل عدة رسائل للقنصل الفرنسي في مسقط يعرض عليه أبوظبي ميناءً للخطوط البحرية الفرنسية. ورغم أن شيئاً لم ينتج من تلك المراسلات، ولم يعلم البريطانيون قط عنها - فإن انفتاح الشيخ زايد على فارس عام ١٩٠٠، ورفضه رفع علم الساحل المتصالح أدى إلى معاتبته سريعاً وبقسوة، وإجباره على وقف الاتصال. ورفع العلم المتصالح. وأخيراً قيل إن الشيخ زايداً بطمّح إلى السيطرة على الساحل المتصالح كله ما أثار هلع البريطانيين في الأعوام الأولى من القرن العشرين. واتباعهم قلق من أن شيئاً كهذا قد يدفع القواسم وحلفاءهم إلى طلب المساعدة السعودية ويفسد السياسة البريطانية في الحفاظ على الوضع الراهن في طول الساحل المتصالح في الخليج. وكان مفتاح عدم الإخلال بتلك السياسة هو الإبقاء على الوضع الراهن الذي اعتمد على عدم إخلال مخططات الشيخ زايد به.

ومع بداية القرن العشرين اعتبرت المصالح البريطانية في الخليج هامة جداً. حتى إن اللورد لانسداون - وزير الدولة للشؤون الخارجية - أعلن في البرلمان: "علينا أن نعتبر تأسيس قاعدة بحرية، أو ميناء محصن في الخليج لاي قوة أخرى تهديداً خطراً للمصالح البريطانية، وعلينا أن نقاوم ذلك بكافة الوسائل لدينا"¹². وفي الوقت نفسه شرح اللورد كيرزون - نائب الملك في الهند - السياسة البريطانية في الإمارات المتصالحة مباشرة في مجلس للحاكم في الشارقة في ٢١ نوفمبر عام ١٩٠٣. وكانت زيارة اللورد كيرزون الزيارة الأولى لنائب الملك في الهند إلى الخليج، واستغل تلك الفرصة ليبين طبيعة العلاقة (بين بريطانيا والساحل المتصالح) ويعرضها أمام حكام إمارات الساحل المتصالح الذين حضروا للاستماع إلى حديثه:

"أيها الحكام، لقد جعلت العلاقات التي قامت بيننا بإرادتكم الحكومة البريطانية قائمة على السلام بين القبائل. ونشأت العلاقة بين الحكومة البريطانية في الهند وبينكم، وبذلك أصبحت الحاكم المطلق والحامي، وليست لكم علاقة مع أي قوة أجنبية أخرى. وقد تعهدت كل إمارة من الإمارات المعروفة بإمارات الساحل المتصالح كما تعلمون بالأ توقيع أي اتفاقية، أو تبادل أي مراسلة مع أي قوة، وألا تسمح بدخول وكيل لأي حكومة، وألا تتنازل عن أي جزء من أراضيها. وتعد تلك التعهدات ملزمة لكل واحد منكم، وقد التزمتم بها بالفعل. وهي ملزمة تبادلياً أيضاً للحكومة البريطانية، ومادام الشيوخ ملتزمين بها بإخلاص فلا خوف من أن يُسمح لأحد بالعبث بحقوقكم أو حرياتكم".

11. Reproduced in Tuson, Records of the Emirates, Vol. 4, p. 502.

12. Quoted in Briton Cooper Busch, Britain and the Persian Gulf, 1894-1914 (Berkeley: University of California Press, 1967), p. 256.

"أظن أحياناً أن سجل الماضي في خطر من أن يُنسى. وهناك أشخاص يسألون: لماذا تستمر بريطانيا في استخدام هذه القوى؟ إن تاريخ إماراتكم وعائلاتكم، والوضع الحالي للخليج هو الجواب. نحن هنا قبل ظهور أي قوة أخرى في العصر الحديث على صفحات هذه المياه. ولقد وجدنا صراعات مريرة لكننا أقمنا النظام"^[13].

ولم يكن الحكام - بن فيهم الشيخ زايد - متفائلين مثل كيرزون. وإن كانت بريطانيا - دون جدال - قد احتلت موقعاً من القوة والتحكم على طول الساحل العربي، بما في ذلك الساحل المتصالح.

الجدير بالذكر أن بعض الشيوخ الآخرين في الساحل المتصالح شعروا بقلق بريطانيا نفسه من طموحات الشيخ زايد في العقد الأخير من حياته، أو ما يقارب ذلك؛ فلقد أدخلته رغبته المستمرة في السيطرة على البري في صراع مع الظواهر المحاصرين بين أواخر ثمانينيات وأوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى أنه دُفع إلى توقيع اتفاقية عام ١٩٠٦ مع حكام الساحل المتصالح الآخرين لاحترام مناطق النفوذ على القبائل البدوية.

تقييم

من الممكن وصف علاقة الشيخ زايد ببريطانيا من نواح عديدة بأنها كانت عدائية أكثر من أي شيء آخر نتيجة القيود التي فرضها البريطانيون على نشاطاته البحرية، وتحديد نطق سلطته الجغرافية، وإصرارهم على التوسط في خلافاته مع القبائل والحكام الآخرين. ولقد عظمت السيطرة البريطانية عام ١٨٩٢ عندما وقع الشيخ زايد (مع حكام الساحل المتصالح) اتفاقية حماية، واعترفت بريطانيا بأبوظبي بعض الوقت، وأضفت اتفاقية عام ١٨٩٢ الشرعية على تكوين كيان الإمارات المتصالح، وأصبحت لاحقاً الإمارات السبع التي تكوّن دولة الإمارات العربية المتحدة.

كان دور الشيخ زايد رئيسياً في نشوء أبوظبي كإمارة؛ فقد كان رجل دولة، وصاحب إنجازات، وخبيراً بالبيئة البدوية. وفي هذا السياق واصل عملية بدأها أسلافه حتى إن الصراعات الأخوية التي جرت بعد وفاته لم تلمس تلك الإنجازات. وقد نجح في التعايش مع البريطانيين وقبول القيود التي فرضوها، ولكنهم أبقوا على حرية حركته وسعيه لتوسيع سلطته، وبينما أسست اتفاقية عام ١٨٩٢ سيادته في بعض النواحي فقد فرضت قيوداً من نواحي أخرى. وحددت تلك الاتفاقية بشكل رئيس علاقات أبوظبي بالقوى الأوروبية في مواجهة التهديدات الإقليمية، وكانت الحماية التي أوجدتها الاتفاقية ضئيلة فيما يخص سيطرة الشيخ على شعبه.

ولعل أفضل تقييم للشيخ زايد وضعه بجانب مجموعة مختارة من الحكام الرئيسيين في تلك الفترة، ولاسيما الشيخ مبارك الصباح في الكويت (حكم ١٨٦٩-١٩١٥)، والشيخ جاسم بن محمد في قطر (حكم ١٨٧٦-١٩١٣) وربما أيضاً الأمير (ولاحقاً الملك) عبد العزيز من نجد (حكم ١٩٠٢-١٩٥٣). وكانت تلك هي الفترة التأسيسية لتلك الدول. وكالشيخ جاسم والشيخ مبارك حما الشيخ زايد بلاه من الطموحات العثمانية والغزوات السعودية، وأسس كالشيخ مبارك علاقة طويلة الأجل ببريطانيا على الرغم من أن التهديدات الخارجية في حالة أبوظبي كانت أقل، وعواقبها الداخلية أخف أثراً. وكالشيخ جاسم كون الشيخ زايد أول إحساس وطني بالمحيط القبلي.

13. Quoted in Lorimer, Gazetteer, Vol. 1, Historical, Part 2, p. 2638.